

# **الخليفة الأندلسي المثقف**

## **(المستنصر الأموي وجهوده الثقافية)**

د. عبد الله بن محمد علي بن حيدر علي

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم التاريخ، جامعة أم القرى

بمكة المكرمة

لم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم  
(المستنصر) في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها  
والتهمم بها. أفاء على العلم ونوه بأهله  
ورغب الناس في طلبه

ابن الأبار: الحلة السيرة

ج ١ ص ٢٠١

## مقدمة:

يتوافر حديث المؤرخين والباحثين في التاريخ الأندلسي وتنوع دراساتهم ليشبثوا ما للمجتمع الأندلسي من درجات ثقافية وأبعاد علمية وبراعات أدبية وقدرات في مختلف الفنون. وكثيرا ما يقدمون الدليل على تلك الدرجات من الحضارة بإيراد تراجم العلماء والأدباء وغيرهم، متوسعين في عرض نصوصهم وتوضيح آرائهم وبيان مكتشفاتهم الفنية والعلمية، فيعرضون كل ذلك ليكشفوا عن المستوى الحضاري الذي بلغه المجتمع الأندلسي في العصر الإسلامي.

لقد اهتم الباحثون في دراساتهم بكل ما عددها دون أن يولوا العناية الكافية لرجال السلطة من خلفاء وملوك وأمراء، في حين أن صاحب السلطة كثيرا ما يكون المشجع الرئيسي على بروز الحركة العلمية وتقدمها، ويكون الدافع للمثقفين والأدباء إلى طريق الإنتاج بواسطة عنايته وتقريبه للمبدعين أو تشجيعه المادي والأدبي لهم.

لم يكن خلفاء المسلمين وملوكهم عامة والأندلسيون خاصة ممن يغلب عليهم الجهل وانعدام الثقافة، بل كانوا- في غالب حالهم- يتكونون في مدارس القصور التي كثيرا ما كانت مرتبطة بالعلماء والأدباء، ويسعى فيها الملوك الآباء لبناء ثقافة أبنائهم على أيدي كبار المربين والأدباء حتى يتم إعدادهم ويكونوا أهلا للحكم في مجتمع مثقف وأهلا للتعامل مع حاشية ذات مستوى علمي وثقافي وفني.

وهكذا تتوزع أخبار ثقافة أصحاب السلطة من خلفاء وملوك بين كتب التاريخ والأدب التي تقدم أحيانا نصوصا عديدة وتروي روايات كثيرة متعلقة بأحدهم تجعلنا نرى فيه الحاكم المثقف العالم الذي تسمح له

درجته بمحاورة العلماء ومناقشتهم، فيوجههم ويفيدهم عندما يهيئ لهم المكتبات الثرية والتشجيعات السخية، فتظهر لنا النصوص من مصادر ترجمتهم ما حظي به الحاكم من درجة في ثقافته وعلمه تجعله أهلاً لدراسات تكشف عن مستواه وتبرز مزاياه.

من بين الخلفاء الأندلسيين تبرز لنا شخصية الخليفة الأموي الحكم المعروف بالمستنصر الذي امتاز بالعديد من مميزات الثقافة. ويكاد يجمع المؤرخون على ذكر أخبار اهتمامه بالثقافة وميوله العلمية التي تميز بها على غيره من الخلفاء الذين سبقوه أو الذين تولوا بعده.

ونحن- في هذا البحث- نتناول التعريف بالجهود الثقافية للمستنصر ونعرض عن إيراد الجوانب السياسية من حياته ولا نذكر منها إلا ما كان ضرورياً. ذلك لأن حياته السياسية وجهوده فيها يتطلب بحثاً منفرداً مستقلاً سواء في مرحلة ولايته لعهد أبيه أو في مرحلة توليه الخلافة.

## ترجمة المستنصر:

### نسبه:

هو الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، كنيته: أبو المطرف وأبو العاص ولقب بالمستنصر. أمه أسمها مهرجان<sup>(١)</sup> أو مرجانه. وهو تاسع حكام الأمويين وثاني خلفائهم في بلاد الأندلس<sup>(٢)</sup>.

### صفاته:

صفاته الخلقية ذكرها ابن عذاري فقال: كان أبيض مشرب بحمرة، أعين أقني جهير الصوت قصير الساقين ضخم الجسم غليظ العنق عظيم السواعد أققم<sup>(٣)</sup>.

## نشأته العلمية:

نلاحظ أولاً أن القصر الأموي بالأندلس كان يحوز المكانة الرفيعة في مجالات العلوم والآداب. فقد كان أغلب خلفائه وأمرائه من المثقفين مما جعل بلاطهم مجمعا للعديد من العلماء ومنتدى للكثير من الأدباء. يشتمل على مكتبة ثرية تتجمع فيها الأمهات من المصنفات والنوادر من المؤلفات. وكان عبد الرحمن الناصر والد الحكم من بين الخلفاء المهتمين بالعلم والثقافة.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/٢٣٣، الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ١/٤٢-٤٣، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ١/٣١، المقرئ، نفح الطيب ١/٣٦١.

(٢) كان الأمويون منذ الأمير عبد الرحمان الداخل (رقم ١) إلى الأمير محمد (رقم ٧) ينادى عليهم بالإمارة فقط. ولم يتجرؤوا على إعلان الخلافة والتلقب بـ "أمير المؤمنين" إلا مع عبد الرحمان الثالث أو الناصر (رقم ٨) سنة ٩٢٩/٣١٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٣٣. والأفقم: من طال أحد فكيه وقصر الآخر فلا يتطابقان إذا أقفل فاه.

إن النشأة العلمية التي عاشها ابنه الحكم المستنصر منذ صغره في قصر الخلافة جعلته يجالس بلاط والده الذي كان يختار له من المربين والعلماء أغزرهم علما وأفضلهم أدبا. فكان لهذه النشأة أثر في ميوله العلمية ودرجته الثقافية.

**شيوخه ومربوه:** إن التراجم التي خصصت للتعريف بالمستنصر لم تذكر إلا عددا محدودا من شيوخه<sup>(١)</sup>. إلا أننا أضفنا إليهم شيوخا آخرين عرفناهم من خلال نصوص تاريخية أخرى مكنتنا من إنجاز هذه القائمة<sup>(٢)</sup>.

- محمد بن إسماعيل النحوي القرطبي الذي كان مؤدبا للمستنصر<sup>(٣)</sup>.
- عثمان بن نصر المصحفي وكان مؤدبا له أيضا<sup>(٤)</sup>.
- ابنه جعفر بن عثمان المصحفي الذي أدبه كذلك، ولما تولى المستنصر ولاية العهد "أزلف جعفرا عنده وأدناه منه فاستخدمه في إمارته، ثم لما تقلد الخلافة استوزره وأمضاه مع ذلك على كتابته الخاصة، وضم إليه بعد مدة ولاية الشرطة، وأخدمه ابنه هشاما"<sup>(٥)</sup>.
- ومن شيوخ المستنصر الذين أجازوه في الحديث ثابت بن قاسم بن ثابت السرقسطي فقد أجازته كتاب والده "الدلائل في غريب الحديث"<sup>(٦)</sup>.

(١) انظر مثلا الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣ / ١١٩.

(٢) جمعنا هذه القائمة في شيوخ المستنصر من تراجم كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وغيره من المؤلفات. والملاحظ أن ابن الفرضي من أقرب المؤرخين زمنا لعهد المستنصر.

(٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٧٠٧.

(٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٥١٧.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيرة ٢٥٧/١ - ٢٥٨.

(٦) شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٣٠، ٨ / ٢٦٩. وقد ذكر الكتاب في كشف الظنون ١ / ٧٦٠. أنظر ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١٨٥.

- قاسم بن أصبغ الذي سمع منه الحديث<sup>(١)</sup>.
- زكريا بن خطاب الكلبي الذي أكثر من الرواية عليه<sup>(٢)</sup>.
- سعيد بن جابر الكلاعي الذي سمع منه الحديث<sup>(٣)</sup>.
- وسمع من المحدث فتح بن محمد الأنصاري الطليطلي<sup>(٤)</sup>.
- وكتب الأحاديث التي رواها محمد بن غانم البطليوسي<sup>(٥)</sup>.
- واستقدم المحدث محمد بن مروان بن رزيق فاستفاد من علمه<sup>(٦)</sup>.
- وقرب ابن زيد الأسقف القرطبي صاحب التصانيف في التنجيم، وكان مختصا بالمستنصر<sup>(٧)</sup>.
- هشام بن الوليد الغافقي القرطبي الذي كان نحويا عالما بالعروض وقد أدب المستنصر<sup>(٨)</sup>.
- منصور بن حازمة الذي قدم قرطبة على المستنصر وهو ولي للعهد<sup>(٩)</sup>.
- وذكر الصفدي أن المستنصر كتب عن خلق كثير من العلماء<sup>(١٠)</sup>.

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٦١٣.

(٢) ن. م ٢١٧.

(٣) ن. م ٢٩٩.

(٤) ن. م ٥٩٤.

(٥) ن. م ٧١٦.

(٦) ن. م ٧١٧.

(٧) المقرئ: نفح الطيب ١٨٦ / ٣.

(٨) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٨٩١ - ٨٩٢.

(٩) النويري: نهاية الأرب ٢٣ / ٤٠٠ - ٤٠٢، المقرئ: نفح الطيب ١١ / ٣.

(١٠) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣ / ١١٩.

## بيعته وتولييه الخلافة:

ورث الخليفة الحكم المستنصر إرثا عظيما بعد وفاة والده عبد الرحمن الناصر، إذ كانت الأندلس مستقرة على أسس ثابتة موحدة حدودها آمنة ومتمتعة بالتقدم والعمران الباهر<sup>(١)</sup>. وكان والده الناصر قد أثره منذ حدثته على سائر إخوته وولادة عهده. وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يتجاوز الثامنة.

وبويع الحكم في اليوم التالي لوفاة أبيه. ولم يكن حين ولايته حديث عهد بشئون الملك، بل لقد مارسها في حياة أبيه الذي كثيرا ما ندبه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة، فكان عند جلوسه خليفة مكتمل النضج والخبرة<sup>(٢)</sup>، إذ بويع بعد موت أبيه لثلاث خلون لرمضان سنة [١٦/٣٥٠ أكتوبر ٩٦١م] وعمره ثلاث وستون سنة. (٣)

ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله اتخاذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل رضى من أرباض قرطبة. وأجرى عليهم المرتبات وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم. وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة وباقيها في كل رضى من أرباض المدينة. وفي ذلك يقول ابن شخيص الشاعر (البسيط): (٤)

مكاتبها لليتامى من نواحيها

وساحة المسجد الأعلى مكلفة

نادتك يا خير تاليها وواعيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

(١) الحجي: التاريخ الأندلسي ٢٩٩.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤٨٣ / ٢.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢ / ٢٣٣. وقد طالعت مدة ولايته للعهد حتى قال له والده الناصر يوما: لقد

طولنا عليكم يا أبا العاصي. ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٢ / ٢٤٠.

ولمواصلة تشجيعه لنشر التعليم والعناية بفقراء طلاب العلم حبس الحكم المستنصر في سنة

٩٧٥ / ٣٦٤ حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء<sup>(١)</sup>.

وقد كان هذا الخليفة على درجة من الخلق جعلته عندما تولى السلطة استنكر وجود الخمر في بلاده وحاول قطعها فأمر بإراققتها. واستشار أهل دولته في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله، ففيل له: يعملونها من التين وغيره فتوقف عن ذلك. وفي أمره بإراقة الخمر يقول الشاعر أبو عمر بن يوسف بن هارون الكندي في قصيدة له يتوجع فيها لشاربيها<sup>(٢)</sup>، طالعها.

### بخطب الشاربين يضيق صدري وترمضني بليتهم لعمرى

توفي المستنصر بقرطبة سنة ٩٧٦ / ٣٦٦ بعد أن دامت مدته خمسة عشر سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام<sup>(٣)</sup>.

المستنصر كما وصفته المصادر التاريخية.

أجمع المؤرخون في الثناء على أخلاق المستنصر وثقافته فذكروا حسن سيرته وفضله مع اتساع ثقافته وتقديره للعلم وإكرامه للعلماء والفقهاء وأهل الأدب. فقد قال عنه الحميدي: "كان حسن السيرة، جامعا للعلوم، محبا لها، مكرما لأهلها"<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن الأبار: "كان حسن السيرة فاضلا عادلا مشغوبا بالعلوم"<sup>(٥)</sup>.

(١) ن. م. ٢٠٤٩ / ٢.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب ٦٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٢ / ٢٣٣.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ١ / ٤٢ - ٤٣.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٠.



وقال ابن كثير "إنه كان من خيار الملوك وعلمائهم، وكان عالما بالفقه والخلاف والتواريخ محبا للعلماء محسنا إليهم" (١).

وقال ابن حزم عنه: "اتصلت ولايته خمسة عشر عاما في هدوء وعلو، وكان رفيقا بالرعية، محبا في العلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم" (٢).

وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان أنه قال: إن الدولة الأموية في عهد الحكم "تناهت في السرو والجلالة والكمال والأبهة. ونظم رواة الأخبار، وحملة الآثار، من مناقبه (المستنصر) ما طار كل مطار، في جميع الأقطار" (٣).

قال عنه ابن حيان أيضا "كان من أهل الدين والعلم، راغبا في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم... مستجلبا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروي عنهم" (٤).

وقال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام: "كان حسن السيرة، مكرما للقادمين عليه" (٥).

وقال الذهبي في السير "وكان جيد السيرة، وافر الفضيلة، مكرما للوافدين عليه.. كان عالما إخباريا، وقورا، نسيج وحده" (٦).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٥ / ٣٧١.

(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ١٠٠.

(٣) ابن بسام: الذخيرة المجلد ٤ الجزء ٧ ص ٤٣.

(٤) نقلا عن ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠١.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٨: ٢٥٥.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٦ / ٢٣٠ - ٢٣١.

وقال في موضع آخر "وكان حسن السيرة جامعا للعلم، مكرما للأفاضل، كبير القدر، ذا نعمة مفرطة في العلم والفضائل، عاكفا على المطالعة"<sup>(١)</sup>.

قال الصفدي "وقد كان حسن السيرة مكرما للقادمين عليه... علما نبها حسن السيرة صافي السيرة"<sup>(٢)</sup>.

وقال الحميدي: "كان المستنصر من أحب ملوك الأندلس للعلم وأكثرهم اشتغالا به وحرصا عليه"<sup>(٣)</sup>.

قال ابن العماد الحنبلي "كان حسن السيرة محبا للعلم مشغوبا بجمع الكتب والنظر فيها بحيث إنه جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ولا جمعه أحد بعده حتى ضاقت خزائنه عنها"<sup>(٤)</sup>.

### مكانة المستنصر العلمية

كان حرص المستنصر على جمع العلم من كبار الشيوخ، وولعه بجمع الكتب ومطالعتها سببا في اتساع علمه ودقة نظره ووفرة استفادته "وكان في المعرفة بالرجال والأنساب والأخبار أحوزيا نسيج وحده"<sup>(٥)</sup> وهو ما جعله مشاركا في العديد من الاختصاصات العلمية من شرعية ولغوية أدبية، كما عني بالحدثان والنجوم، مما يستبين لنا من خلال ما نعرضه في هذا البحث من آثاره وأخباره.

---

(١) ن. م. ٢٦٩ / ٨.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ١١٩ / ١٣.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ٢٥٣.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥٥ / ٣.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٥٥ / ٨.

## اهتمام الحكم المستنصر بالأنساب:

كان للحكم المستنصر اهتمام بعلم الأنساب يكتب ويحرر. قال عنه الذهبي: "كان له يد بيضاء في معرفة الرجال والأنساب، والأخبار"<sup>(١)</sup>.

ووصفه ابن الأبار بقوله: "قلما تجد له كتابا كان في خزائنه إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم: يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثوقا به مأمونا عليه وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ينقلون من خطه ويحاضرون به"<sup>(٢)</sup>. ومن شدة ثقة المؤلفين بما يكتبه الحكم أصبح حجة عند أهل الفن وينقل عنه ويحال عليه. قال ابن الأبار "قلت: وقد اجتمع لي من ذلك جزء مفيد مما وجد بخطه، ووجدت أنه يشتمل على فوائد جمة في أنواع شتى"<sup>(٣)</sup>. كما كان المستنصر يدعو أهل كل بلد لكتابة أنسابهم.

وذكر ابن حيان أن المستنصر كان "باحثا عن الأنساب، حريصا على تأليف قبائل العرب وإلحاق من درسه نسبه أو جهله بقبيلته التي هو منها"<sup>(٤)</sup>.

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٣١.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٢.

(٣) نفس المصدر ١ / ٢٠٢.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٢.

وتعددت نقول المؤرخين والنسابين مما كتبه المستنصر من تعاليق على كتبه المحفوظة في مكتبته الشرية. فقد أحصينا من نقول ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الأندلس ثلاثة عشر نصا يقول فيها "وجدت أو قرأت أو رأيت بخط المستنصر" (١).

ونقل عنه ابن حزم في كتابه جمهرة أنساب العرب مرات عديدة (٢).

وقد وصف الحميدي صحة نقول المستنصر وخطه فقال: "خطه حجة عند أهل العلم عندنا وكان علما ثبثا" (٣).

### مؤلفاته:

ذكر المؤرخون عن ثقافة الحكم المستنصر شهادات كثيرة دالة على علمه ومعرفته بالعديد من أنواع العلوم. من ذلك ما قاله الذهبي من أنه "قلما تجد له كتابا إلا وله فيه قراءة أو نظر، من أي فن كان" (٤) والمعروف أن خزانته جمعت عشرات الآلاف من الكتب يضاف إلى ذلك مطالعته الكثيرة وحصوله على الزاد العلمي الواسع الذي جمعه من شيوخه وأخذ عن علماء عصره، مما يؤهله للتأليف والتصنيف.

لكن مع الأسف لا نعرف من مؤلفات المستنصر غير كتابين اثنين. فقد نسبت له بعض المصادر كتاب أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب.

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١٨٦، ٢٣٤، ٢٧١، ٢٨٦، ٣٩١، ٣٩٨، ٤٣٥، ٥٩٦، ٦٠٦، ٦٤٤، ٦٨٤، ٨٥٣، ٩٢٧.

(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب: الصفحات ١٠٣-١٠٤، ٣٠٩-٣١٠، ٣٩٨-٣٩٩، ٤٠٨، ٤٢٤.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ١٦٤.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام: ٨ / ٢٥٥.

وقال المقرئ عند ترجمة هاشم بن الحسين بن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو من الداخلين من المشرق إلى الأندلس:

إنه ذكره أمير المؤمنين الحكم المستنصر في كتابه "أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب" (١).

ونسبه له البغدادي في كتابه إيضاح المكنون (٢) ولا يعرف منه نسخة مخطوطة.

والكتاب الثاني وضعه في أنساب أهل قرطبة، دلت على تأليفه له إشارة واضحة أوردها ابن الأبار في قوله "وكان قد قيد كثيرا من أنساب أهل بلده، وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أخل ذكره قبل ولايته، وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك، ويؤلف من الكتب [أهل الدراية بهم]، ويرد كل ذي نسب إلى نسبه. وفرج بذلك العلم فتم له من ذلك ما أراد، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد" (٣).

كما كان الحكم المستنصر ينظر في علم الحدثان. فقد ذكر المقرئ في ترجمة محمد بن أبي عامر قوله: "وكان الحكم لشدة نظره في علم الحدثان يتخيل في ابن أبي عامر أنه المذكور في الحدثان" (٤).

وذكر المقرئ عنايته بالتنجيم وقال "وأما التنجيم فلا بن زيد الأسقف القرطبي فيه تصانيف، وكان مختصا بالمستنصر بن الناصر المرواني" (٥). وكان أحمد بن فارس المنجم هو زعيم المنجمين في عهد الحكم. قال ابن بسام: "بلغني عن أحمد بن فارس البصري المنجم زعيم الصناعة بها على عهد الحكم أنه

(١) المقرئ: نفح الطيب ٣ / ٧٢.

(٢) البغدادي: إيضاح المكنون ١ / ١٣٢.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٢ / ٢٥٧.

(٥) المقرئ: نفح الطيب: ٣ / ١٨٦.

نظر في مولد عبد الملك ابن المنصور محمد أبي عامر<sup>(١)</sup> وبالجملة فقد كان الحكم المستنصر يأخذ من عديد العلوم بطرف.

### شعر الحكم المستنصر:

كان الحكم المستنصر شاعرا: يقرض الشعر ويتذوقه على عادة الشعراء، وقد ألقت وجمعت له كتب في الشعر. قال المقرئ: "ألقت كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى رأيت منها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء"<sup>(٢)</sup>.

قال عنه ابن العماد الحنبلي "كان بصيرا بالأدب والشعر وأيام الناس وأنساب العرب متسع الدائرة كثير المحفوظ، ثقة فيما ينقله"<sup>(٣)</sup>. فمن شعره وهو جيد (الطويل):

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت	وكيف انثنت عند الفراق يدي معي
فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دما	ويا كبدي الحري عليها تقطعي

ومنه أيضا<sup>(٤)</sup> (الطويل):

إلى الله أشكو من مشائل مسرف	علي ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه داري فاستزاد صدوده	وإني على وجدي القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقي بالغ	من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

ومما ينسب من الشعر للناصر وقيل: لابنه الحكم قوله<sup>(١)</sup> (مجزوء البسيط):

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ٤ مج ١/٧٩

(٢) المقرئ: نفخ الطيب ٣/ ١٧٤

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣/ ٥٥، وانظر ابن الأبار: الحلة السرياء: ١/ ٢٠٣، المقرئ: نفخ الطيب ١/ ٣٩٥.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٥٥.

عوضني الله منه شيا

ما كل شيء فقدت إلا

تباعد الخير من يديا

إني إذا ما منعت خيري

فإنها نعمة عليا

من كان لي نعمة عليه

وذكر ابن تغري بردي أن الحكم المستنصر هو الذي كتب إليه العزيز - حاكم مصر العبيدي -

يهجوه، فرد المستنصر جوابه للعزيز، وكتب في أول كتابه قصيدة أولها (الطويل):

بنا الحال أو دارت علينا الدوائر

ألسنا بني مروان كيف تقلبت

إلى أن قال:

له الأرض واهتزت إليه المنابر

إذا ولد المولود منا تهللت

ثم قال: وبعد، عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك. والسلام<sup>(١)</sup>.

قال ابن الأبار يرد على ابن فرج في قوله: إن خلفاء بني أمية يرتفعون عن الشعر أو أن يروى عنهم أو يؤخذ من أقوالهم قال: "وهذا الذي قال غير مسلم له ولا مقبول منه، بل إكثار الملوك من الشعر دال على قوة عارضتهم وسعة ذرعهم، وحاكم بمعانة مادتهم وتمكن تصرفهم، ولولا ذلك لما فضل ابن المعتز أهل بيته بالإبداع في أنواع القريض، وكذلك تميم بن المعز المتقيل أثره في الإكثار، والإتيان بما قيد وخلد من بدائع الأشعار، ولا أبلغ من الاحتجاج، وأقطع للخصم المتناهي اللجاج، مما هو عليه مولانا (المستنصر) من تحبير الغرائب، وتسيير الكلم الغر أثناء المشارق والمغارب، وهو البرهان على ربح المجال،

---

(١) المقرئ: نفع الطيب ١ / ٣٧٩ - ٣٨٠

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤ / ١٤٩.

وتحصيل أسباب الفضل وأشتات الكمال، ولازال سلطانه ييخع له بالطاعة ويدان، وزمانه يشرق بمحاسنه الباهرة ويزدان"<sup>(١)</sup>.

### اختيار المستنصر لعلماء قصره وتشجيعه لإنتاجهم وإكرامهم

إن المكانة العلمية الكبيرة التي بلغها المستنصر بما حصل عليه من ثقافة لامست العديد من الاختصاصات العلمية أثرت تأثيرا بالغاً في البناء العلمي الثقافي للقصر الأموي في عهده. لقد ورث المستنصر عن والده الناصر دولة قوية اعتمدت وجمعت كل عناصر الحضارة والرسوخ في السياسة والعلم. وعندما تولى المستنصر وجد القصر الأموي عامراً بالعلماء. فهو القصر الذي تربى فيه وتعلم وعرف فيه عددا كبيرا من المثقفين العلماء. وقد علمه فيه والده ضرورة السعي إلى العلم والعلماء وتشجيعهم. وفعلا واصل المستنصر جهود والده في ذلك فجعل القصر الأموي الأندلسي في عهده عامراً بالعلماء الأندلسيين من أهل قرطبة وغيرها من مدن الأندلس. كما كان القصر عامراً بالعلماء من غير الأندلسيين سواء من بلاد المغرب أو من عواصم المشرق. وقد قال عنه ابن الأبار: كان مستجلباً للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروي عنهم<sup>(٢)</sup>.

إن ما في كتب التاريخ والطبقات والتراجم الأندلسية من أخبار يدل على العدد الوافر من العلماء الذين كانوا على اتصال بالمستنصر، كما يؤكد على وجود علاقات علمية وطيدة بينهم وبينه.

ولو رتبنا هؤلاء العلماء حسب علاقاتهم بالمستنصر لكانوا على النحو التالي:

أ- فمنهم العلماء الذي كانوا شيوخه ومرييه، وهم الذين عرضنا قائمتهم سابقا.

ب- ومنهم من كانت لهم مكانة علمية عنده فظهر منه احترام لهم وتقدير لمكانتهم العلمية.

(١) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٥.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠١.



- ج- ومنهم من كلفهم المستنصر بالتأليف في موضوعات اختصاصاتهم العلمية.
- د- ومنهم من كلفهم بمسؤوليات إدارية أو علمية أو إدارية كالوزارة والكتابة أو القضاء أو تأديب أبنائه.
- هـ- ومنهم من استفاد منهم للعناية بمخطوطاته ومكتبته في قصره.
- و- ومنهم من وردوا عليه من خارج بلاد الأندلس سواء من بلاد المغرب (كالقيروان) أو من المشرق (مصر، بغداد، الشام، اليمن).
- العلماء الذين كانت لهم مكانة علمية عند المستنصر فظهر احترامه لهم وتقديره لمكاناتهم العلمية.

كان المستنصر كما وصفه ابن الأثير: محبا لأهل العلم، عالما فقيها في المذاهب، عارفا بالأنساب والتواريخ، جماعا للكتب والعلماء مكرما لهم محسنا إليهم، أحضرهم من البلدان البعيدة ليستفيد منهم ويحسن إليهم<sup>(١)</sup>.

وقد جمعنا قائمة بما تيسر من أسماء العلماء الذين كانت لهم مكانة عنده فظهر احترامه لهم وتقديره لمكانتهم لتقوم دليلا على أثره في الحركة العلمية والأدبية، ومن هؤلاء العلماء:

- منذر بن سعيد البلوطي الذي ظهر علمه وبانت بلاغته للناصر فأعجب به وأقبل على ابنه الحكم - ولم يكن يثبت معرفته - فسأل الناصر ابنه عنه، فقال له: هذا منذر بن سعيد البلوطي، فقال: والله لقد أحسن ما شاء، ولئن أخبرني الله بعد لأرفعن من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه، واستخلصه، وذكرني

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧ / ٣٦٨ - ٣٦٩

بشأنه، فما للصنيعة مذهب عنه. ثم لما تولى المستنصر الخلافة ولى منذر بن سعيد الصلاة والخطابة في

المسجد الجامع بالزهراء، ولما توفي محمد بن عيسى القاضي ولاء قضاء الجماعة بقرطبة<sup>(١)</sup>.

● وقد التمس المستنصر من زاهد الأندلس أبي بكر يحيى بن مجاهد الفزاري أن يأتي إليه فامتنع، فمر

الخليفة في موكبه بالفزاري وسلم عليه عليه فرد عليه ودعا له، وأقبل على تلاوته<sup>(٢)</sup>.

● وكان شيخ القراء أبو الحسن الأنطاكي يدرس في حلقة فمر به المستنصر وجلس ومنعهم من القيام

له، فما تحرك أحد<sup>(٣)</sup>.

● أبو إبراهيم إسحاق وهو من كبار علماء المالكية قال عنه المقرئ: "كان الفقيه أبو إبراهيم المذكور

معظما عند الناصر وابنه الحكم وحق لهما أن يعظماه"<sup>(٤)</sup>

وذكر المقرئ قصة وقعت له مع الفقيه أبي إبراهيم: إذ طلبه الخليفة لأمر بقصره فاعتذر الفقيه

بسبب جلوسه في المسجد يدرس الحديث للطلاب وأنه سيأتيه حال انقضائه، فجاء رسول الخليفة

بالرضي وأن يمضي إليه حال انتهائه، فطلب الفقيه من رسول الخليفة أن يفتح له باب الصناعة وهو أحد

أبواب القصر القريب لمجلس الفقيه بسبب كبر سنه وعجزه. فعاد الرسول سريعا بالموافقة وظل الرسول

ينتظر الفقيه حتى يكمل درسه ليرافقه إلى قصر الخليفة. وبقي الفقيه على عادته غير منزعج ولا قلق. قال

ابن مفرج - وهو أحد تلاميذه - فلما انفض المجلس مضى الفقيه إلى قصر الخليفة من ذلك الباب

فوجدناه مفتوحا وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ما بين كناس وفراش متأهبين لانتظار أبي إبراهيم،

(١) المقرئ: نفح الطيب ١ / ٣٧٢

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٣١.

(٣) ن. م: سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٣١

(٤) المقرئ: نفح الطيب ١ / ٣٧٢

فاشدد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه. وعبر المقرئ عن ذلك الموقف بكلمة تكتب بماء الذهب قال:

"فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك معهم، قدس الله تلك الأرواح"<sup>(١)</sup>.

● وكانت للحافظ المحدث عبد الله بن محمد بن أبي الديلم مكانة عند المستنصر<sup>(٢)</sup>.

● واستقدم المستنصر فرج بن سبعون النحلي فسمع منه غير واحد<sup>(٣)</sup>.

● كما كان المؤرخ عريب بن سعد (سعيد) القرطبي (ت ٣٦٩هـ / ٩٧٩م)

مؤلف كتاب مختصر تاريخ الطبري من المقرئين من المستنصر فاستكتبه<sup>(٤)</sup>.

● وكانت للمحدث العالم بالطب محمد بن تملخ التميمي منزلة منه<sup>(٥)</sup>.

● وأما عالم العربية محمد بن أبان اللخمي فقد وصفه ابن الفرضي بقوله: كان مكينا عند المستنصر<sup>(٦)</sup>.

ومن شعراء قصر المستنصر أبو بكر المغيلي<sup>(٧)</sup>. وعبد الملك بن سعيد<sup>(٨)</sup> ويوسف بن هارون<sup>(٩)</sup>.

وإسماعيل بن بدر<sup>(١٠)</sup>. ومحمد بن شخيص<sup>(١١)</sup> وغيرهم.

العلماء الذين وردوا عليه من خارج بلاد الأندلس:

بلغت أخبار عناية المستنصر بالثقافة آفاق البلاد العربية من مشرق ومغرب.

(١) المقرئ: نفح الطيب ١ / ٣٧٧ - ٣٧٩

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٣٩٩

(٣) نفس المصدر ٧٥١

(٤) الزركلي: الأعلام ٤: ٢٢٧

(٥) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٧٤٠.

(٦) نفس المصدر ٧٣٣

(٧) الحميدي: جذوة المقتبس ٦٢٢

(٨) ابن عذاري: البيان المغرب ٢ / ٢٢٥

(٩) ن. م. البيان المغرب ٢ / ٢٤٤

(١٠) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ١١

(١١) الحميدي: جذوة المقتبس ١٤٩ - ١٥٠

وصادف عصره ظهور قوة دولة شيعية بدأت حياتها بالقيروان ثم انتقلت إلى مصر هي الدولة العبيدية الفاطمية. وكان من تصرفاتها أنها حاولت فرض التشيع وتعميمه على مناطق نفوذها فألزمت الناس باعتماد المبادئ الشيعية واضطرتهم للعدول عن مذهبهم الفقهي والعقدي السني من مالكي وغيره. فكان من الشيعة اضطهاد للفقهاء والعلماء السنيين مما جعل الكثير منهم يتركون بلادهم ويلتجئون إلى القصر الأموي بالأندلس في عهدي الناصر والمستنصر ليجدوا عندهما الرغد والعناية والتشجيع بعد امتحانهم في بلادهم.

والمطالع لتراجم القيروانيين والمشاركة الواردين على الأندلس في تلك المرحلة يلاحظ ذلك في أسباب هجرتهم وفي ما أنتجوه من مؤلفات فقهية وغيرها.

#### من الوافدين القيروانيين:

من أكبر رجالات القيروان الذين وردوا على المستنصر المحدث المؤرخ محمد بن الحارث الخشني صاحب الكتب الكثيرة في التراجم والتاريخ، منها كتاب قضاة قرطبة الذي ألفه بأمر من المستنصر الذي اهتم بكتاب للخشني في التاريخ فأضاف إليه إضافات هامة نقلت عنها المصادر الأندلسية خصوصا كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي<sup>(١)</sup>.

وورد عليه من مدينة القيروان الفقيه حكم بن محمد بن هشام القرشي القيرواني واتصل به فأكرمه، ثم طلب الرجوع إلى القيروان وألح في ذلك رغم محاولة المستنصر لثنيه عن ذلك. وفي القيروان

---

(١) انظر ترجمة الخشني في كتاب ابن الفرضي ٨٠٢-٨٠٣، وانظر نقوله عن إضافات المستنصر على كتب التاريخ التي ألفها الخشني في الصفحات ٢٨٦ و ٣٩١.

امتنح في عهد عبيد الله المهدي الشيعي وسجن بسبب مناصرته للسنة. ثم رجع إلى الأندلس ثانية فأكرمه المستنصر<sup>(١)</sup>.

وقدم عليه من صقلية والقيروان عباس بن عمر الوراق فصار من جملة الوراقين بقرطبة، وتوسع له في إمداده بالورق، ولعله استفاد منه في إثراء مكتبته بالقصر<sup>(٢)</sup>.

كما ورد عليه من مختلف بلاد المغرب الكثير من علمائها وأدبائها ومثقفوها. وكان المستنصر يتطلع إلى استقدام كبار علماء المغرب في العهد العبيدي بالقيروان. فقد روى عنه المالكي في رياض النفوس أنه كان يقول: ليس أشتهي من دولة الشويحي إلا أربعة: أبا القاسم ابن أخت الغساني المقرئ وابن الصيقل الشاعر وابن الجزار الطبيب وابن القسطيلية المعبر. فأما أبو القاسم ابن أخت الغساني وابن الصيقل فقد وصلا إليه وأقاما عنده حتى ماتا، وأما ابن القسطيلية وابن الجزار فلم يوصلا إليه<sup>(٣)</sup>.

#### من الوافدين المشاركة:

كان الحكم المستنصر مهتما بدخول العلماء والفقهاء لبلاد الأندلس ويكتب في هذا الشأن. وكان بلاطه مهوى قلوب الوافدين إلى بلاد الأندلس عند نزول البلاء والمحن على البلاد لما يجدونه من رعاية كريمة واهتمام مباشر بهم، فقد ذكر المقرئ أن إسماعيل بن عبد الرحمن بن علي القرشي وهو من ذرية عبد ابن زمعة أخى سودة بنت زمعة أم المؤمنين - رضي الله تعالى عنها - وفد من بلاد المشرق إلى

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ج I / ٢٢٢ الترجمة رقم ٢٧٥.

(٢) ن. م، ح ٥٠٩ / II الترجمة رقم ٨٨٤.

(٣) المالكي: رياض النفوس ٢: ٤٧٧.

الأندلس في زمن السلطان الحكم المستنصر بالله أعوام الستين وثلاثمائة حين ملك بنو عبيد مصر وأظهروا فيها معتقدتهم الخبيث، فحل يومئذ من الحكم المستنصر محل الرحب والسعة<sup>(١)</sup>.

ومن أهم العلماء والأدباء المشاركة الواردين على الأندلس أبو علي القالي الذي كانت له علاقة وطيدة بقصر الناصر وابنه المستنصر بعده. ذكر المقرئ: أن أبا علي القالي، صاحب الأمالي والنوادر، وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، فأمر ابنه الحكم - وكان يتصرف عن أمر أبيه كالوزير - عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرامة لأبي علي، ففعل وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذكرون الأدب في طريقهم، ووقع من أبي علي خطأ عروضي فلوى ابن رفاعه عنانه منصرفاً فكتب ابن رماحس إلى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى لابن رفاعه ويشكوه، فأجابه على ظهر كتابه: الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطئ وفد أهل العراق إلينا، وابن رفاعه أولى بالرضى عنه من السخط، فدعه لشأنه، وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته، فسوف يعليه الاختبار إن شاء الله تعالى أو يحطه<sup>(٢)</sup>. وهذا من كمال أدب الحكم إذ حتى لو أخطأ العالم فالمضيف لم يواجهه بتعنيفه بل أمر بإكرام وفادته وتركه للاختبار في ساحة العلم حتى يظهر خطؤه من صوابه. وكذا ذكر الصفدي: أن أبا علي القالي لما وفد على المغرب "قصد صاحب الأندلس الناصر لدين الله عبد الرحمن، فأكرمه وصنف له ولولده الحكم تصانيف وبث علومه هناك"<sup>(٣)</sup>.

(١) المقرئ: نفح الطيب ٦٩ / ٣.

(٢) ن. م ٧٠ - ٧١.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١١٩ / ١٣.

وكان الحكم المستنصر يساعد الكتاب والمؤلفين على إتمام كتبهم. قال ابن الأبار في ذلك "وصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرهما، جرى ذكر هذا في كتب تواريخهم. وقال المقرئ: "كان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ينشط أبا علي القالي، ويعينه علي التأليف بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام. وكانوا يسمونه البغدادي لوصوله إليها من بغداد". بل يذكر المقرئ أيضا أن الحكم بنفسه استدعاه من بغداد لولائه فيهم<sup>(١)</sup>. وبقي أبو علي القالي في معية الحكم المستنصر منذ كان وليا للعهد<sup>(٢)</sup>.

وقدم على المستنصر عالم من بيت المقدس هو عبد الملك بن محمد الأموي المعروف بالسليمان فتوسع له المستنصر وأجرى عليه العطاء مع قریش<sup>(٣)</sup>.

ومن مصر قدم عليه الفقيه محمد بن أحمد الحصيني ويعرف بابن الأزرق، مر في طريقه بالقيروان فامتحنه الشيعة العبيديون وسجن بالمهدية بضع سنين ثم لما أطلق دخل الأندلس، فأمر المستنصر بإنزاله مع الضيوف وتوسع له في العطاء<sup>(٤)</sup>.

ومن اليمن قدم عليه الشيخ محمد بن العباس بن يحيى فكان المستنصر يجري عليه النزل مع الأضياف<sup>(٥)</sup>.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٣ / ٧٥

(٢) المقرئ: نفح الطيب ١ / ٣٦٤

(٣) ابن الغرضي: تاريخ علماء الأندلس ٤٦٧

(٤) ن. م ٨٠٦ - ٨٠٧

(٥) ن. م ٨٠٥ - ٨٠٦

ولم يكن اهتمام المستنصر مخصصا بفقهاء المالكية فقط بل نجده يقبل ويكرم بعض فقهاء الشافعية من المشاركة. فقد جاءه من بغداد شيخ شافعي بغدادى هو محمد بن أحمد بن أبي بردة البغدادي فأكرمه وأمر بإجراء النزل عليه<sup>(١)</sup>.

وقدم عليه فقيه شافعي آخر هو علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر من أهل أنطاكية. تذكر المصادر أنه أدخل إلى الأندلس علما جما وأنه نزل من المستنصر ومن الناس المنزلة الرفيعة، كما كان يعد من علماء القراءات والفقهاء الشافعي<sup>(٢)</sup>.

العلماء الذين كلفهم المستنصر بالتأليف في موضوع اختصاصهم العلمي أو وضعوا كتبهم برسمه: من بين أهم مظاهر التنشيط العلمي الذي قام به المستنصر وأفاد به المجتمع الأندلسي المثقف حرصه على تكليف العلماء بتأليف مميزة في اختصاصهم.

ومن نواذر قصصه في تكليف العلماء بوضع مؤلفات يرغب فيها ما ذكره الحميدي في ترجمة عبد الله بن محمد بن مغيث- الذي كان أثيرا عنده- وروى هذه القصة ابن الشيخ عبد الله فقال: "لما أراد المستنصر غزو الروم في سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ تقدم إلى والدي بالكون في صحبته فاعتذر بضعف في جسمه. فقال المستنصر لأحمد بن نصر: قل له: إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا (الأمويين) بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيتها من الغزاة. فخرج أحمد بن نصر إليه بذلك، فقال: أنا أفعل ذلك لأمر المؤمنين، إن شاء الله. قال: فقال المستنصر: إن شاء أن يكون تأليفه له في منزله فذلك إليه، وإن شاء في دار الملك المطللة على النهر فذلك له. قال: فسأل أبي أن يكون ذلك في دار الملك وقال: أنا رجل مورود في منزلي، وانفرادي في دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل

(١) ابن الفريسي: تاريخ علماء الأندلس ٨٠٤

(٢) ن. م ٥٣٦



شغل. فأجيب إلى ذلك، وكمل الكتاب في مجلد صالح، وخرج به أحمد بن نصر إلى الحكم المستنصر فلقيه بالمجلد بطليطلة فسر الحكم بذلك<sup>(١)</sup>.

● كما أمر المستنصر محمد بن الحسن الزبيدي بوضع كتاب يترجم فيه للنحاة واللغويين، فوضعه وقال في مقدمته: "وأمر المؤمنين الحكم المستنصر بالله- لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم والإحاطة بصنوف الفنون أمرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين... فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به.. وأوسعني من روايته وحفظه، إذ هو البحر الذي لا تعبر أوديته ولا تدرك سواحله<sup>(٢)</sup>".

● ويذكر الحميدي أن المحدث يعيش بن سعيد الوراق ألف مسند حديث ابن الأحمر بأمر من المستنصر<sup>(٣)</sup>.

● كما وضع له كتاب الاستيعاب في آراء مالك بن أنس الذي ألفه أحمد بن عبد الملك الأشبيلي مع محمد بن عبد الله القرشي المعيطي، وهو في مائة جزء ولما رفع إليه سر ووصلهما وقدمهما إلى الشورى<sup>(٤)</sup>.

● كما قام الحافظ محمد بن عبد الله بن سيد بتبويب كتاب المستخرجة في الفقه المالكي للخليفة المستنصر<sup>(٥)</sup>.

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ٩-١٠.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ٦١٦.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ٥٤.

(٥) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٧٤٣.

● وألف أبو الفرج الأصبهاني له أيضا كتاب "أنساب بني أمية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم، فأحسن فيه جدا، وخلد لهم مجدا. وأرسل به إلى قرطبة للمستنصر. وأنفذ معه قصيدة حسنة من شعره يمدحه بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قریش، فجدد له عليه الصلة الجزيلة<sup>(١)</sup>".

● ودعا المستنصر أحد حفاظ عصره وهو محمد بن أحمد بن مفرج القرطبي إلى التأليف فاستجاب ووضع له عدة دواوين. وكان هذا الشيخ قد قام برحلة علمية واسعة جمع فيها العلم من أكثر من مائتي شيخ<sup>(٢)</sup>. كما جمع له مسند حديث شيخه قاسم بن أصبغ<sup>(٣)</sup>.

● وجمع ابن صلا الله القرطبي من كتب الإمام الشافعي مائة وعشرين جزءا زود بها مكتبة المستنصر وقد كان ابن صلا الله هذا من جلسائه<sup>(٤)</sup>.

● وألف محمد بن حارث الحشني القروي (القيرواني) للمستنصر كتباً كثيرة بلغت مائة ديوان - على ما قيل - كما جمع له تأليفا في رجال الأندلس<sup>(٥)</sup>. وقد ورد في مقدمة كتابه في قضاة قرطبة الذي طبع طبعات متعددة ما نصه: فإنه لما أمر الأمير - أبقاء الله - بتأليف كتاب القضاة... هزرت رواية الأخبار عن أخبارهم.. فألفت من ذلك فصولا تروق المستفهمين..<sup>(٦)</sup> ومن مطالعة مقدمة الكتاب تتوافر النصوص الدالة على أن المستنصر كلف الحشني بتأليفه عندما كان وليا للعهد وأن الحشني واصل إلحاق بعض نصوصه بعد أن تولى المستنصر الخلافة<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠١ - ٢٠٢

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٧٧٣.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ١ / ٧٦

(٤) بالنشأ: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٣٥.

(٥) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٢٤، ٨٠٣.

(٦) الحشني: قضاة قرطبة ٢٣ - ٢٥

(٧) ن. م ٢٣٧

● واستجاب المؤرخ خالد بن سعد القرطبي لرغبته في وضع كتاب يترجم فيه لرجال الأندلس. وهو كان من كبار المحدثين حتى قال فيه المستنصر: إذا فاخرنا أهل المشرق بيحيى بن معين فاخرناهم بخالد بن سعد<sup>(١)</sup>.

● وألف إسحاق بن سلمة القيّني كتابا في أخبار الأندلس أمره المستنصر بتأليفه<sup>(٢)</sup>.

● وذكر المقرئ أن محمد بن يوسف الوراق ألف للمستنصر في مسالك إفريقية وممالكها ديوانا ضخما، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً جمة. وكذلك ألف في أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة وغيرها تواليف حسنا<sup>(٣)</sup>.

● وأهدى أسقف من قرطبة للمستنصر تقويمًا للأعياد المسيحية في إسبانيا<sup>(٤)</sup>.

● وألف ابن زيد الأسقف للحكم المستنصر كتاب "تفصيل الأزمان، ومصالح البلدان" وفيه من ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه<sup>(٥)</sup>.

● وصنف أبو علي القالي مؤلفات كثيرة للناصر ولابنه المستنصر أهمها كتاب الأمالي وكتاب النوادر<sup>(٦)</sup>. وكلفه بمقابلة كتاب العين للخليل بن أحمد وتأليف أخرى.

● ويبدو أن المستنصر أنفذ كتابا في التاريخ إلى المؤرخ المصري أبي سعيد بن عبد الأعلى ليكون معتمده في تأليف كتاب في تراجم المصريين والمغاربة. قال ابن الفرضي في مقدمة كتابه تاريخ علماء الأندلس:

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) ن. م ١٤٥.

(٣) المقرئ: نفح الطيب: ١٦٣ / ٣.

(٤) حوليان رييرا: المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية ١: ٨٨.

(٥) المقرئ: نفح الطيب ١٨٦ / ٣.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣ / ١١٩.

وما كان فيه عن أبي سعيد فهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى المصري، خرجته من تاريخه في أهل مصر والمغرب. أخذ ذلك من كتاب أنفذه إليه أمير المؤمنين الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله<sup>(١)</sup>.

وبما أن المستنصر كان شاعرا ويقرض الشعر ويتذوقه على عادة الشعراء فقد ألقت وجمعت له دواوين من الشعر. قال المقرئ: "كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى رأيت منها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء"<sup>(٢)</sup>

وهكذا نرى أن المستنصر لا يألو جهدا في تكليف العلماء وتشجيعهم على تصنيف مؤلفات كان يحدد لهم موضوعاتها ويقدم للمؤلفين التوجيه ويشجعهم بالإكرام والهدايا الثمينة. والناظر في عناوين الكتب التي أمر بتأليفها يجدها متنوعة الاختصاصات. فمن كتب الحديث إلى كتب الفقه المالكي والشافعي إلى كتب اللغة والأدب ومجاميع الأشعار إلى العديد من كتب التاريخ والتراجم الأندلسية مع عناية بكتب المسالك الجغرافية وكتب النجوم.

### مكتبة القصر الأموي وعناية المستنصر بإثرائها

عندما تحدث القلقشندي في صبح الأعشى عن خزائن الكتب المشهورة في التاريخ الإسلامي اعتبر خزانة خلفاء بني أمية من بين أجل المكتبات<sup>(٣)</sup>.

لقد عرف الخليفة الناصر بعنايته بالعلم والكتب فورث أبناؤه عنه تلك العناية الشريفة. وكان لابنيه الحكم المستنصر وأخيه عبد الله اهتمام بجمع الكتب. وظلا يتنافسان في جمعها إذ كان المستنصر

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٢٤.

(٢) المقرئ: نفح الطيب ٣ / ١٧٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ١ : ٤٦٧

وليا للعهد، كما كانا يتباريان في طلب العلم، ويتناغيان في جمعه، ويتبادران إلى اصطناع أهله واختصاص رجاله وإدناء منزلهم والإحسان إليهم<sup>(١)</sup>. وكان عبد الله على مثل هذه الحال من المحبة للعلم والعلماء والرواية حتى توفي في حياة أبيه مقتولا فتصيرت كتبه إلى أخيه ولي العهد<sup>(٢)</sup>.

واشتهرت عناية المستنصر بالكتب عند المؤرخين والمترجمين له فسجلوا ذلك في مؤلفاتهم. فقد ذكر ابن الأبار أن الحكم المستنصر كان "حريصا على اقتناء دواوين الكتب، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبدل في أعلاقتها ودفاترها أنفس الأثمن، ونفق ذلك لديه فحملت من كل جهة إليه، والمملك سوق، ما نفق فيها جلب إليها، حتى غصت بها بيوته، وضافت عنها خزائنه"<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن الأبار أيضا "ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها، أفاء على العلم، ونوه بأهله، ورغب الناس في طلبه"<sup>(٤)</sup>.

قال الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام "جمع (المستنصر) من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، مع العلم والنباهة وحسن السيرة وصفاء السريرة.. كان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت بها خزائنه، وكان ذا غرام بها، قد أثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته وكان في المعرفة بالرجال والأنساب والأخبار أحوديا نسيج وحده"<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٦

(٢) ن. م ١ / ٢٠١، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨ / ٢٧٠.

(٣) ن. م ١ / ٢٠٠ - ٢٠١.

(٤) ن. م ١ / ٢٠١.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٨ / ٢٥٥.

وقال عنه الذهبي أيضا: كان "ذا غرام بالمطالعة وتحصيل الكتب النفيسة الكثيرة حقها وباطلها بحيث إنها قاربت نحوًا من مائتي ألف سفر، وكان ينطوي على دين وخير.. وكان باذلاً للذهب في استحلاب الكتب، ويعطي من يتجر فيها ما شاء، حتى ضاقت بها خزائنه، لا لذة له في غير ذلك" (١).  
ووصفه المؤرخ ابن الأثير: بأنه كان جماعاً للكتب والعلماء (٢).

وهكذا ارتقى حب المستنصر للكتب إلى حد لا يوصف إلا بالشغف قال الياضي "كان مشغوفًا بجمع الكتب والنظر فيها بحيث إنه جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ولا بعده حتى ضاقت خزائنه" (٣).

لقد كان الخليفة المستنصر من المبادرين لاقتناء الكتب الكبيرة والشهيرة بأهميتها ويرغب في الاستفراد بها قبل انتشارها بين الناس، ويرسل النقود إلى مؤلفيها ليساعدهم وليحصل على أولى النسخ. وانطلاقاً من هذه الرغبة الشديدة كان المؤلفون يبادرون بتقديمها له بل يجعلون مقدماتهم للكتب حافلة بالإشادة بذكره. قال المقري "باسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله طرز الشيخ أبو علي القالي كتاب "الأمالي" وكان الحكم كريماً، معنياً بالعلم" (٤). وكان يسمع بتأليف الكتب قبل نزولها بأيدي الناس فيبعث للمؤلفين بالنقود ويخاطبهم بل يلتمس منهم إعطاءه نسخاً منها. وقد بلغت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرهما، جرى ذكر ذلك في كتب تواريخهم" (٥). وكذلك "بعث إلى أبي الفرج

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٦ / ٢٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧ / ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٣) المقري: نفح الطيب ٧٢ / ٣.

(٤) ن. م ٧٢ / ٣.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٠ - ٢٠١.

الأصبهاني القرشي المرواني ألف دينار عينا ذهبيا وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني، وما لأحد مثله، ووصل بذلك المال رحمه. فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منه"<sup>(١)</sup>. وكذلك فعل مع شيخ المالكية في المشرق القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم"<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن الحكم يجمع الكتب ويقوم بحفظها في خزائنه بل إنه يكاد لا يترك كتابا ورد عليه إلا وقرأه وعلق عليه بتعليقات فريدة ومفيدة. ذكر الإمام الذهبي فقال "قلما تجد له كتابا إلا وله فيه قراءة أو نظر، من أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف، ومولده ووفاته، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن"<sup>(٣)</sup>.

اشتهر الحكم المستنصر بين المؤرخين بجمعه للكتب بأنواعها. كما اهتم بها في ترتيبها وتنظيمها وحفظها وبذل الجهد في الحصول على النسخ الأمهات والأصلية. قال المقري عنه "وكان محبا للعلوم، مكرما لأهلها، جماعا للكتب في أنواعها فحظي بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله". وقال ابن حزم: "وأخبرني تليد الفتى، وكان (قائما) على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس، أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط. وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقه جلبت إليها بضائعه من كل قطر"<sup>(٤)</sup>. بل كان يبعث في

(١) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠١.

(٢) المقري، نفح الطيب ١ / ٣٨٦.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٨ / ٢٥٥، ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٢.

(٤) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٠٠، المقري: نفح الطيب ١ / ٣٨٥-٣٨٦، تاريخ ابن خلدون ٤ / ٣١٢.

شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار، يرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه<sup>(١)</sup>.

قال عنه الصفدي "جمع من الكتب ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ونفاضة، قيل إنها كانت أربع مائة ألف مجلد وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها".

وقال أيضا "كان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلا فيها ما أمكن من الأموال فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته<sup>(٢)</sup>".

وكان للحكم أناس في الأمصار يكتبون له عما صدر وما سيصدر من كتب، قال ابن الأبار: "وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التوليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق باحثين عنها. فمن وراقه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة"<sup>(٣)</sup>.

وذكر النويري في نهاية الأرب أن الحكم المستنصر "جمع من الكتب على اختلاف أنواعها ما لم يجمعه غيره من الملوك قبله، واشتراها من سائر الأقطار، وغالي في أثمانها، فحملت إليه من كل جهة"<sup>(٤)</sup>. وبذلك اجتمع لديه من الكتب الشيء الكثير، فاق فيه غيره. قال المقرئ "اجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء"<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئ: نفح الطيب ١: ٣٨٦.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣ / ١١٩.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ٢٠٢.

(٤) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٣ / ٤٠٠.

(٥) المقرئ: نفح الطيب ١ / ٣٨٦.



ومن هذا العدد الوافر من الكتب التي جمعها الحكم استفاد من جاء بعده من العلماء كابن الفرضي وغيره<sup>(١)</sup>.

وإلى جانب اهتمام المستنصر بجمع الكتب التي عين بعض العلماء للعمل في خزانة كتبه يقابلون بين الدواوين الواردة، منهم محمد بن يحيى الرياحي<sup>(٢)</sup>.

واهتم أيضا بصناعة الكتاب وما يتعلق به. فقد "جمع بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله"<sup>(٣)</sup>.

وكان يستخدم أشهر الوراقين وأحذقهم في الكتابة. وممن استخدمه في الوراقة ظفر البغدادي، وهو من الوافدين على الأندلس وسكن قرطبة وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط. واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقة لما علم من شدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها<sup>(٤)</sup>. وأحمد بن سعيد بن مقدس الذي كان نحويا ضابطا للكتب نسخ للمستنصر كثيرا<sup>(٥)</sup>.

لكن حين تقع الكتب في أيدي من لا يعرف قيمتها ولا فضلها هنا تكون المصيبة العظمى والطامة الكبرى إذ تباع بأبخس الأثمان في الأسواق فتكون نهايتها الأليمة. وعن مصير مكتبة قصر الزهراء قال المقرئ "ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم

(١) انظر بحث: مصادر الحفاظ ابن الفرضي للدكتور حمد بن صالح السحيباني ص ٢٠.

(٢) الزبيدي: طبقات النحويين ص ٣١٤.

(٣) المقرئ: نفح الطيب ١ / ٣٨٦.

(٤) المقرئ: نفح الطيب ٣ / ١١١، ابن خلدون: التاريخ ٤ / ٣١٢ - ٣١٨.

(٥) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١٠٦ - ١٠٧.

إياها عنوة<sup>(١)</sup>. ويذكر ابن عذاري أن المنصور بن أبي عامر أحرق الكثير منها بمحض كبر العلماء بسبب اشتغالها على كتب الفلسفة والجدل في الاعتقاد والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها<sup>(٢)</sup>.

## خاتمة

أطلقنا على المستنصر صفة الخليفة المثقف لأنه كان يمثل الحاكم الذي عاش في بيئة علم ومعرفه، ونهل من معين بلاط كان مجمعا للعلوم والآداب، وتعلم على خيرة أبناء عصره من الأندلسيين، وعندما عين وليا للعهد ثم لما تولى الخلافة جعل جهوده - طيلة أكثر من أربعين سنة - مبدولة للثقافة بأنواعها وخصها بجميع وجوه التشجيع والتوجيه والإكرام، مع عنايته الكبرى بالكتب والمؤلفات. وكان لكل هذه العوامل أثر بارز في بعث الحياة الثقافية بالأندلس في عصره فجعلها صورة ناصعة للحضارة العربية الإسلامية فبقيت فخرا للأجيال.

ولو نظرنا إلى حياة الخليفة المستنصر وجهوده فيها لوجدنا آثاره عظيمة منها:

- إنه شارك في المجالس العلمية وحصل على درجة رفيعة من المعرفة بالعديد من العلوم من دينية ولغوية وتاريخية وغيرها.
- وقام بتنشيط الحركة العلمية بتشجيع العلماء على تأليف الكتب الكثيرة والهامة في مجالات اختصاصهم ودفعهم إلى إنتاج ما يمكن أن يباري به العلماء المشاركة في إنتاجهم وكتبهم وإشعاعهم.
- استقدم العلماء من القيروان - عاصمة المغرب آنذاك - ومن مختلف عواصم بلاد المشرق مغتتما فرصة ظهور الدولة الشيعية العبيدية في القيروان والمهدية ثم في مصر وسوء معاملتها لعلماء السنة وهم الغالبية من الفقهاء.
- وجه اهتماما عظيما للكتاب تأليفا وجمعا وعناية به للحفاظ عليه واختيار الممتاز منه قيمة علمية وضبطا، مما جعله يضيف إلى المكتبة الأندلسية الأموية زادا صار المؤرخون يعتبرونها من بين أعظم المكتبات العربية في التاريخ.
- كما اهتم بتثقيف المجتمع الأندلسي ونشر العلم بين كل طبقاته، فيسر للضعفاء طلب العلم بإنشاء تعليم مجاني لأبنائهم وخصص له المدرسين وضمن استمراره بأوقاف تفي بالحاجة.
- وأخيرا يعتبر المستنصر عينة ممتازة من أهل السلطة في المجتمع الأندلسي الإسلامي الذي استفيد من علمه وفضله وجهوده في المجالات الثقافية والعلمية والفنية. رحمه الله.

(١) المقرئ: نفع الطيب ١/ ٣٨٦، ابن خلدون: التاريخ ٤/ ١٨٨، بالنشأ: تاريخ الفكر الأندلسي ٣٣٢.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣.